كلام بكلام:
التداولية من منظور بخلاء الجاحظ

الدكتور : بلقاسم مالكية

عرف القرن العشرون ثورات عديدة تركت هذه الثورات بصماتها على ملامح القرن ، وشكلت مفاصله الكبرى ، فكان بذلك القرن الأكثر حركية وإبداعا في تاريخ البشرية ، سواء أكانت هذه الحركية سلبية أو إيجابية، وسواء أنتج عن هذا الإبداع تقدم في حياة الإنسان المادية ، أو تقهقر أخلاقي قاتل ، تنتج عنه حروب مدمرة ، وصراعات مهلكة ، وخراب هز أرجاء المعمورة كلها ، لم تسلم منه لا الطبيعة ولا الإنسان .

وفي مجال بحثنا هذا سنركز على مجموعة من الثورات التي تمس العلوم والتقنيات ، كما تمس الحياة السياسية والاقتصادية للعالم ، وهذه الثورات يمكن إدراجها في نقاط ثلاث هي:

- ثورة اللسانيات .
- ثورة الاتصالات .
- انتصار النموذج الأمريكي في الحياة .

وتندرج هذه الثورات كلها في إطار المسار الذي عرفته الإنسانية في العصرالحديث والساعي إلى تحرير الإنسان وتمكينه من السيطرة على الكون ، واستغلال ثرواته، هذا الاستغلال الذي نتجت عنه أضرار كبيرة ، بدايتها كانت حركة الاستعمار الغربي للعالم ،ونهايتها لا تتوقف عند الدمار الشامل الذي أخذ يحيط بهذا العالم من احتباس حراري ، وأزمة مالية حادة، وانهيار شديد للنظام العالمي ، وما يجره كل ذلك من كوارث عالمية تدفع الأرض وسكانها أثمانا كبيرة ، ترهن الأجيال المقبلة وتقضي على مستقبلها .

إن الثورة اللسانية تكمن في نجاحها في إطار العلم الحديث وفلسفته الوضعية، التي تسعى إلى الاستقلال عن النزعة التأملية الميتافيزيقية ، التي كانت تؤطر المجال العلمي في العصور القديمة والوسيطة ، والتي كانت في نظر علماء

وفلاسفة العصر الحديث – العائق الأول أمام تطور العلم وتقدمه – فسعت هذه العلوم إلى الاستقلال عن النظرة الفلسفية الممتزجة بالروح الدينية المغلقة ، التي كانت خاضعة للكنيسة، فتتابع استقلال العلوم الطبيعية الواحد بعد الآخر ، وظلت الدراسات الإنسانية تعاني من تبعيتها للفلسفة مما أشعر علماءها بالنقص أمام التطورات التي عرفتها العلوم الطبيعة ، فسعوا جاهدين إلى محاكاة هذه العلوم، وكانت هناك عدة محاولات مست علم الاجتماع (الفيزياء الاجتماعية) ، والنقد الأدبي (تين ، سانت بوق) إلا أن الخطوة الناجحة كانت على يد سوسير الذي استطاع أن يجعل من دراسة اللغة علما وضعيا حديثا لا يقل شأنا عن العلوم الطبيعية ولا يسمح المجال هنا للكشف عن الأبعاد المعرفية والمنهجية لهذه الثورة ، إلا أننا يمكننا ضبطها في نقاط هي :

- دراسة اللغة في حد ذاتها .
- اعتماد الوصفية .
- الدراسة الآنية للغة .

وقد أحدثت هذه الثورة انقلابا كبيرا في العلوم الإنسانية التي سعت كلها لأن تكون مثل اللسانيات .

أما الثورة التي عرفتها الاتصالات فكانت وليدة الحركة الرأسمالية الحديثة ، التي دفعت الإنسان الغربي إلى الخروج من عالمه الضيق ، المحصور في درجته القصوى بالقارة الأوروبية ، ذلك أن حركة التجارة ، ثم الثورة الصناعية جعلتا هذه القارة تضيق بأصحابها، فخرجوا إلى العالم مستكشفين أول الأمر ، ثم مستعمرين ، كل هذا حتم تطوير وسائل الاتصال ففتحت الطرق البرية والبحرية ثم الجوية . وطورت وسائل نقل المعلومات ، حيث أصبحت هذه الأخيرة لا تقل أهمية عن البضائع المادية ، إن لم تفقها، ذلك ان من يتحكم في المعلومات يتحكم في السوق وغير السوق ، وقد انتهت هذه الثورة إلى وسائل الاتصال الحديثة، التي تتمركز حول شبكة الانترنت التي تعد الخلاصة التركيبية لكل الوسائل التي اخترعها الإنسان ، حيث تعتمد الدمج بين الاختراعات المختلفة (الكتابة ، الصورة ، الكهرباء...).

أما انتصار الولايات المتحدة وظهروها كقوة عالمية ، فله تاريخه الطويل ، الذي لا يتسع هذا البحث للإحاطة به ، إلا أننا يمكننا التركيز على أن عوامل عديدة قد أسهمت في الدفع بالنموذج الأمريكي إلى التميز أولا ، ثم الانتصار والانتشار ثانيا ، منها الطبيعة الغنية بالثروات ، والمجتمع المتعدد الأعراق وسياسة العزلة ، والبعد عن

مراكز الصراع التقليدية في العالم ، وقد كانت الحرب العالمية الثانية الفرصة التاريخية المثالية التي دفعت بالولايات الأمريكية إلى الواجهة ، بثقافتها ورؤيتها للحياة هذه الثقافة التي تشبه الفطر، حيث أنها لا تملك الماضي العريق الذي يفرض أعرافه ، فيعيق الحراك ، ومن هنا كانت الثقافة الأمريكية تندفع دوما نحو الأمام ، ولا تنظر إلى الخلف ، لأنه لا يوجد هناك شيء يستحق النظر إليه ، كما أنها ثقافة عملية لا تملك الوقت الكافي للتأمل ، وبناء الأنساق الفكرية والفلسفية الكبرى . إن نموذجها الأعلى الذي تقتفي أثره ، هو ذلك المستكشف المغامر الذي ينتقل عبر الأراضي الواسعة ليكتشف مكانا جديدا يحوي ثورات يمكن استغلالها . إن هذا المستكشف لا يتشبث بالأرض ولا يملك ذاكرة مكانية تشده بحنينها، لذلك فهو لا يخلف آثار كبيرة ، وهو من جهة أخرى يصرف جهده كله في هذا التنقل ، وفي العمل الميداني ، وحين يعود إلى البيت أو الكوخ لا يجد وقتا للتأمل بل هو يبحث عن الراحة ، والأخطر في هذا المستكشف أنه من اجل غايته مستعد لإبادة كل ما يقف في وجهه ، من بشر أو حيوانات أو كائنات حية أو جامدة ، إنه لا يؤمن إلا بنفسه ومصلحته ولا يؤمن إلا بالقوة المادية ، وقد أنتجت هذه الثقافة الفلسفة النفعية (البرجماتية) التي تولدت عنها الرأسمالية المتوحشة التي توجت بالعولمة ، والتي حولت العالم كله إلى مزرعة أمريكية ، من يدخلها يهلك ، ومن يعارضها يكسر .

ومن تقاطع هذه الثورات وتفاعلاتها من غيره من الثورات التي لم نذكرها ، تولدت رؤى جديدة .

أ- ففي اللسانيات لم تعد اللغة بنية توصف بل أصبحت اللغة استعمالا يجب أن يكشف عن قواعده .

ب- وفي الاتصالات تحولت الحياة بكاملها إلى عملية اتصال سجن الإنسان داخلها (استعارة) الاتصال وهيمنته على كل الأنشطة البشرية .

ج- أما الهيمنة الأمريكية فقد أنتجت لنا المجتمع الاستهلاكي برموزه الكبرى (ماكدونالد، كوكا كولا ...) حيث أصبحت الحياة كلها امحور حول المحلات التجارية، وحول السلعة . .

وكل هذا أنتج وضعية جديدة تتمثل في ترويض الإنسان، فأصبحت الكلمة مولدا للفعل الذي هو الاستهلاك ، وتحولت القناة التواصلية إلى رسالة تشكل العقل

والسلوك .أما العالم فتحول إلى سوق كبيرة تباع فيه كل الأشياء ، وأصبحت يد الرأسمالي تحول كل ما تلمسه إلى ذهب لكنه ذهب رخيص .

من كل هذه التطورات، والتحولات ، والتفاعلات جاءت التداولية لتعلن انتصار الفلسفة الجديدة للحياة ، والنظرة الجديدة للكون ، وقد أفرزت لنا التداولية كفلسفة علوما كثيرة ، يمكننا ذكر بعضها .

- علوم التسيير .
- علوم التسويق .
- علوم الاستثمار .
- البرمجة اللغوية العصبية .
- التنمية البشرية .
- نظريات التلقي والقراءة والتأويل .
- نظريات أفعال الكلام .
- نظريات الحجاج .
- الألعاب الرياضية
- تلفزيون الواقع ...

النص

1- وحدثني إبراهيم بن سندي قال: كان على ربض الشاذروان شيخ لنا، من أهل خراسان. وكان مصححا بعيدا من الفساد والرشا ومن الحكم بالهوى، وكان حفيا جدا، وكذالك كان في إمساكه وفي بخله وتدنيقه في نفقاته، وكان لا يأكل إلا ما لابد منه ولا يشرب إلا ما لا بدله منه.

2- غير أنه إذا كان غب غداة كل جمعة حمل معه منديلا فيه جرذقتان، وقطع لحم سكباج مبرد، وقطع جبن، وزيتونات، وصرة فيها ملح، وأخرى فيها أشنان، وأربع بيضات ليس منها بد،ومعه خلال. ومضى وحده، حتى يدخل بعض بساتين الكرخ، وينظر موضعا تحت شجرة وسط خضرة وعلى ماء جار، فإذا وجد ذلك جلس، وبسط بين يديه المنديل، وأكل من هذا مرة ومن هذا مرة.

3- فإذا وجد قيم ذلك البستان رمى إليه بدرهم، ثم قال: اشتر لي بهذا أو اعطني بهذا، رطبا- إن كان في زمان الرطب-أو عنبا- إن كان في زمن العنب- ويقول له: إياك وإياك أن تحابيني ، ولكن تجود لي، فإنك أن فعلت لم آكله ولم أعد

إليك. وأحذر الغبن فإن المغبون لا محمود ولا مأجور فإن أتاه به أكل كل شيء معه، وكل شيء أتى به، ثم تخلل وغسل يديه، ثم تمش مقدار مئة خطوة، ثم يضع جنبه، فينام إلى وقت الجمعة ثم ينتبه فيغتسل، ويمضى إلى المسجد، هذا كان دأبه كل جمعة.

4- قال إبراهيم: قبينا هو يوما من أيامه يأكل في بعض المواضع، إذا مر به رجل فسلم عليه، فرد السلام ، ثم قال: هلم عافاك الله. فلما نظر إلى الرجل قد انثنى راجعا، يريد أن يطفر الجدول أو يعبر النهر، قال له: مكانك، فإن العجلة من عمل الشيطان فوقف الرجل، فأقبل عليه الخرساني وقال: تريد ماذا؟ قال: أريد أن أتغذى قال: ولم ذاك؟ وكيف طمعت في هذا؟ ومن أباح لك مالي؟ قال الرجل: أو ليس قد دعوتني؟ قال: ويلك، لو ظننت أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام.

الآيين فيما نحن فيه أن تكون، إذا كنت أنا الجالس وأنت المار، أن تبدأ أنت فتسلم، فأقول أنا حينئذ مجيبا لك: وعليك السلام،فإذا كنت لا آكلا شيئا سكت أنا وسكت أنت، ومضيت أنت وقعدت أنا على حالي، وإن كنت آكل فها هنا آيين آخر، وهو أن أبدا أنا فأقول: هلم، وتجيب أنت فتقول: هنيئا. فيكون كلام بكلام، فأما الكلام بفعال وقول بأكل فهذا ليس من الإنصاف، وهذا يخرج علينا فضلا كبيرا. قال: فورد على الرجل الشيء لم يكن في حسابه.

5- فشهر بذلك في تلك الناحية، وقيل له: قد أعفيناك من السلام ومن تكلف الرد.

6- قال: ما بي إلى ذلك حاجة. إنما هو أن أعفي أنا نفسي من هلم، وقد استقام الأمر".

2- يقدم النص المذكور أعلاه نموذجا – يكاد أن يكون شاملا- لموقف بخلاء الجاحظ التداولي. وسيقوم تحليلنا لهذا النص على النقاط التالية:

1- صورة البخيل.

2- تداولية الطعام.

3- تداولية المال.

4- تداولية اللغة.

5- العرف الإجتماعي وأداب التداول.

6- الموقف الفردي في مواجهة الموقف الاجتماعي.

1- لا يمكن لمداخلة موجزة أن تحيط بصورة بخيل جاحظ، ذلك أن هـذه الصـورة تبلغ من التنوع، والثراء جدا كبيرا يجعل من عالم البخل عالما قائما بذاته. ومن حيث مكوناته، وسلوكياته، ومواقفه، وأفكاره، وجميع جوانبه المادية والمعنوية، مما يجعـل الإحاطة به. تحتاج إلى دراسة موسعة يضيق هذا الفضاء البحثي عنها. ومع هذا فإن النموذج المقدم في النص يقدم الشخصية البخيلة تقديما يكاد يكون شاملا.

إن أول ما يبرز من هذه الشخصية هو كونها شخصية إيجابية، على الـرغم مـن أن العرف الاجتماعي ينظر إلى البخل عموما بأنه صفة سلبية.وإيجابيـة البخيـل عنـد الجاحظ تكمن في أنه ليس سطحيا ولا أحادي الأبعاد، بل هو يحمل بين جوانبه عالما ثريا ومعقدا من الصفات إلى تتداخل فيما بينها، لتقدم لنا هـذا البخيـل فـي حياتـه وسلوكه، كائنا واقعيا وإنسانيا، إلى حد كبير. بل قد يصل هذا الجانب الايجابي فيه إلى حد يدفعنا إلى التعاطف معه.

ويمكننا تمثيل يخيل الجاحظ كما ورد في هذه الحكاية كما يأتي:

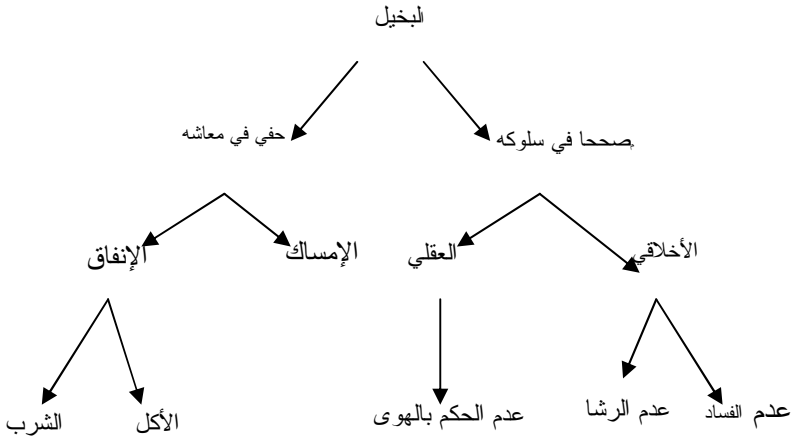

وهكذا نجد أن شخصية البخيل قد بنيت على ركنين أساسيين هما:

أ- التصحيح في السلوك: ويعني الخلو من العيوب، ذلك أن هذا البخيل يتصف في سلوكه بالبعد عن الفساد، سواء أكان هذا الفساد يمس الأخلاق أو يمس العقل.

ب- الحفاوة في المعاش: وذلك بأن يضيق في معاشه بالإمساك في تحصيل المال والاقتصاد في النفقة، بحيث لا يأكل ولا يشرب إلا في حدود الحاجة الدنيا، التي تضمن بقاءه.

وستخضع حياة البخيل كلها لهذين الأساسين.

2- يحتل الطعام المركز في كتاب الجاحظ، حتى أننا يمكن أن نجزم بأن كتاب البخلاء هو كتاب في الطعام، حيث أن الطعام هو مدار الحياة، وكلام، وكل السلوكيات التي يسلكها البخلاء في تحصيله، واستهلاكه، ووصفه، وتدبير أمره، وفي أدبه، والمجادلة عنه وله، وبخيلنا هذا في تداوله للطعام بتصرف وفق الأساسين المذكورين أعلاه:

أ- فهو من حيث التصحيح لا يظلم نفسه، ولا يسلبها حقها في الحياة، فهو لا يجعل أيامه كل تقطيرا وبخلا، بل يسمح لنفسه المرة بعد المرة أن تصيب بعضا من رفه العيش ولذاته، وهذا بالتزامه التغيير في نمط الحياة كل جمعة، وبالخروج من المدينة إلى الطبيعة، وباستحضار الأكل، وبالتنزه، وهذا كله في إطار مبدأ التصحيح الذي يقوم على نفي الفساد، وأي الفساد أكبر من أن يبالغ الإنسان في سلوكه ليصل به إلى حده الأقصى، لأن كل مبالغة تقلب الشيء إلى ضده، وهذا أمر يراعيه البخيل في تعامله مع نفسه.

ب- وإذا كان الأساس الأول يدفع البخيل إلى مثل هذا السلوك الاستثنائي، وفي الخروج عن الروتين، فإن الأساس الثاني يؤطر هذا الإستثناء، وهذا الخروج ليجعله في حدود قانون الاقتصاد والإمساك. لذلك نجد أن طعام البخيل حتى في الإستثناء يكون بسيطا في تركيبه، قليلا في كمه، ثابت لا يتغير، ويكون استهلاكه استهلاكا فرديا. وسيجادل البخيل عن هذه الصفة كما سيأتي في هذا البحث.

ويمكننا في المستوى الطعام أن نخرج بالقواعد الآتية:

أ- الاعتدال في سلوك بعدم حرمان النفس.

ب-الاقتصاد في الإنجاز بالاكتفاء بما هو ضروري.

ج-التفرد في الاستهلاك ورفض المشاركة.

3- يعد المال العنصر الثاني الذي تتركز عليه حياة البخلاء الجاحظ، وهو شكل عالما بنفسه، من حيث طرق تحصيله، وطرق إنفاقه، وطرق التعامل معه، وبه، ووصـــفه، وبخيلنا هذا لا يخرج عن إطار الفلسفة البخل المالية، وهو هنا كذلك يخضع للأساسين المذكورين أعلاه:

أ- فمن حيث التصحيح، فهو يحرص على مصدر تحصيل ماله، لذا فهـــو لا يأخذ الرشوة، ولا يتعامل بها، و كذلك يقطر في الإنفاق.

ب- أما من حيث الحفاوة فهو لا يخرج من ماله إلا بقدر الحاجة الضرورية الدنيا، لذا كان إنفاقه في يوم خروجه على المألوف من حياته لا يتعدى الدرهم الواحد.

وتحليل المواقف التداولي للمال يحيلنا على ما يأتي:

يقوم التبادل المالي بين الطرفين:

البخيل ↔ قيم البستان

يقول على تبادل قيمتين

الدرهم↔ الأشياء المادية(الرطب، العنب)

يقوم على المساواة الكمية:

الدرهم= كمية محددة من الرطب أو العنب

يقوم على المساواة النوعية:

الدرهم الجيد = جودة الأشياء.

وجودة الدرهم هنا آتية له من عنصرين هما:

- جودة ذاتية أي: أنه ليس مغشوش.
- جودة المصدر أي: أن الدرهم حلال.

وقد اعتمد البخيل في إنجاز العملية التداولية المالية على عنصر نفسي له وقعه الشديد في عالم التجارة. وقد جاء هذا العامل على شكل معادلة تقوم على المساواة: ظاهريـــا لكنها تميل لصالح البخيل في عمقها:

لم أكله	=	لم أعد لك
↓		
خسارة البخيل	=	خسارة قيم البستان
↓		
خسارة مؤقتة	≠	خسارة دائمة

هنا نكتشف استراتيجية البخيل في التداول المالي ، حيث يخاطب التاجر بلغة تؤثر في نفسه ، وعقله وتنعكس من ثمة على سلوكه ، وتعامله ، وتبادله مع البخيل، وهذه اللغة تقوم على حساب الربح والخسارة ماديا ومعنويا :

أ- فماديا سيفقد التاجر زبونا دائما ، وما قد يجره عليه من فقد زبائن آخرين

ب- ومعنويا حين ذكره بان الغبن يفقد صاحبه أجره في لآخرة ، وحمد الناس له في الدنيا، والآخرة والدنيا هما ركيزتا الفرد .

4- في تداولية اللغة نجد أنفسنا في مركز العملية التداولية تنظيرا وممارسة ، ذلك ان اللغة تخترق الحياة الإنسانية بكاملها ، وتجعل كل العمليات التواصلية عامة والتداولية منها خاصة ، خاضعة لها ، لأنها تتم من خلالها أو معها ، أو تقليدا لها حيث تتحول التداولات غير اللغوية إلى تداولات لغوية ، من خلال وصفها أو مزجها باللغة ، أو من خلال المحاكاة ، حيث يتحول الطعام إلى مجموعة من المفردات والعلاقات التي تنظمها قواعد وتحكمها بلاغة معينة ، وكذلك الأمر بالنسبة لمال ، ولغير هذين المجالين من مجالات الحياة ، هذه الحياة التي تخضع كلها لهذا العرف ، والسلوك اللغوي .

وحين نتفحص الموقف التداولي للغة من منظور بخيل الجاحظ، وكما تعكسه الحكاية أعلاه على الأقل نجده موقفا مزدوجا :

أ- فمن جهة هناك الممارسة اللغوية (الموقف العرفي).

ب- ومن جهة أخرى فهناك التنظير الذي يحاول ضبط هذه الممارسة (موقف البخيل)

وسنعمل هنا على تحليل هذين الموقفين :

الموقف العرفي : وهو الموقف الذي يفرضه العرف الاجتماعي العام ، والذي يخضع له كل أفراد المجتمع ، حتى يصبح سلوكا طبيعيا لا يستدعي من الأفراد الانتباه إليه،

أو التفكير فيه ، أو محاولة نقده ، أو تعديله ، ويمكن إرجاع هذا الموقف إلى عناصره الأساسية الآتية :

أ- شخص (أ) يتناول الطعام لوحده

ب- شخص (ب) يلقي التحية

ج- شخص (أ) يرد التحية ويدعو الشخص (ب) إلى مشاركته الطعام

د- شخصية (ب) أمام خيارين هما : قبول الدعوة أو الاعتذار عنها .

فمن خلال هذه العناصر نجد أن هناك نوعين من التداول هما :

كلام ← كلام

كلام ← فعل

ويمكن تمثيل هذين النوعين من التداول كما يأتي :

أ- التحية ← رد التحية كلام ← كلام

ب- الدعوة ← الاعتذار كلام ← كلام

ج- الدعوة ← قبول الدعوة كلام ← فعل

كل هذه العناصر المتداخلة تشكل هذا الموقف العرفي الذي يمارسه أفراد المجتمع يوميا في سلوكاتهم اللغوية وغير اللغوية ، هذه الممارسة التي تصبح طبيعة ثانية للإنسان يمارسها عفوا، ودون أي تفكير فيها ، أو نقد لها ، وهذا ما يخالفه موقف البخيل .

موقف البخيل : هنا يمثل الموقف المضاد للعرف ، وذلك من خلال الممارسة الفعلية للسلوكات المضادة لهذا العرف ، ثم محاولة توجيه النقد الصريح والمبنى على أسس فكرية ، وحجاجية تحاول إكساب موقف البخيل شرعية عقلية مقنعة .

وموقف البخيل يقوم على معادلة بسيطة هي :

الكلام = الكلام

الفعل = الفعل

الشيء = الشيء

وهذه المعادلات تخضع للمبدأين السابقين وهما التصحيح والاحتفاء .

أ – أما التصحيح فهو يقوم على مبدأ العدل والمساواة ، الذي باختلالهما يختل توازن الأشياء والقيم والمجتمع ، بل الكون بكامله .

ب- وأما الاحتفاء فهو يقوم على الاقتصاد في المعاش والإنفاق، والإنفاق هنا يكون في الكلام والطعام .

ومن هنا يمكننا تصور الموقفين التداوليين الآتيين :

كلام ← كلام موقف صحيح

كلام ← فعل موقف خطأ

ففي الموقف الأول تبادل عنصرين من طبيعة واحدة ، مما يجعل طرفي العملية التداولية يتساويان في عملية التبادل ، حيث يأخذ كل طرف بقدر ما يعطى .

أما الموقف الثاني فهناك ظلم وإجحاف في حق أحد طرفي عملية التبادل ذلك أن مادة التبادل ليست من النوع نفسه عند الطرفين مما يجعل أحد الطرفين خاسر والطرف الثاني رابح .

وفي ضوء هذا يمكننا إعادة تحليل الموقف التداولي ومن جهة نظر البخيل كما يأتي :

أ- شخص (أ) يتناول الطعام لوحده .

ب- شخص (ب) يلقي لتحية .

ج- شخص (أ) يرد التحية ويدعو الشخص (ب) إلى مشاركته الطعام .

د- شخص (ب) أمام خيار واحد هو الاعتذار عن الدعوة .

إن أي خروج عن هذا التصور في نظر بخيل الجاحظ " ليس من الإنصاف، وهذا يخرج علينا فضلا كبيرا" وهذا يحيلنا على مفهوم الإنشاء في نظرية أفعال الكلام " إن القول الإنشائي لا يقول أولا يكتفي بقول شيء ما ، بل ينجز شيئا ما ، وبأنه ليس عرضا صادقا أو كاذبا عن ظاهرة ما ... إن القول إذا لم يكن دائما صادقا أو كاذبا فإنه مع ذلك معرض للنقد ويمكن أن يكون سيء الحظ" ولا نظن القول الإنشائي إلا سيء الحظ مع البخيل ، حيث لاحظ له في التحول إلى فعل ، إنما يبقى مجرد إنشاء خامل لا هو بالصادق المحمود، ولا بالكاذب المذموم ، إنما هو ثرثرة ، وجعجعة بلا طحين .

5- لكن ما السر وراء كل هذه الجلبة ؟ وكل هذا الجدل ؟ ومن أين تتبع سلطة اللغة ؟ حتى يكون لها كل هذا الشأن . إن المجتمع هو الذي يعطي اللغة سلطتها ، ويعطي للكلام قوته ويعمل ذلك على مستويين :

أ- ضبط التداول اللغوي وغير اللغوي داخل المجتمع من خلال ضبط السلوكات والقيم .

ب- وهو الأهم ان يمارس نوعا من القهر المادي والمعنوي على أفراد المجتمع من اجل إلزامهم بهذه القواعد والسلوكات والقيم .

ومن هنا نجد البخيل في صراع حاد ودائم مع المجتمع ، الذي في نظر البخيل يلزمه ما فيه ضرره ، حيث يأخذ منه ماله وطعامه وأشياء مقابل منحه مجدا وشهرة وسمعة ، وهذه الأشياء في نظر البخيل لا تغني من جوع ولا من فقر ، بل قد تكون سببا للفقر والجوع ، لذلك نجد في موقف أحد البخلاء ما يوضح ذلك حين رد على الجماعة التي دعته إلى إنفاق ماله :"لم أجمعه بعقولكم لأفرقه بعقولكم " فالمجد والجاه والذكر الحسن والثناء والمدح ... هذه كلها كلمات جوفاء فارغة في نظر البخيل .

فهل يستطيع المجتمع أن يتفهم موقف البخيل ؟ ويتنازل له ؟ نعم هذا ما تظهره الحكاية حين نجد الجماعة تعفي البخيل من رد التحية . لكن مع ذلك نجد البخيل لا يقبل هذا لأنه يعرف أن سلطة المجتمع أقوى ، وسلطة العرف لا يمكن قهرها ، أو التغلب عليها، لذا فهو لا يلزم المجتمع بالتغير لأن هذا يتجاوز قدرة البخيل كفرد ، بل هو يلزم نفسه بالتغير ، وهذا أمر مقدور عليه إلى حد كبير .

إننا نجد كتاب البخلاء للجاحظ يقدم لنا صورة عن البخيل وهو يحاول أن يصبح سلطة مضادة للمجتمع من خلال إيجاد رابطة تجمع البخلاء ، ليس جمعا ماديا من خلال تشكيل جماعة متميزة ، بل من خلال تحويل البخل إلى سلوك يتجاوز الفعل إلى التنظير الفكري والفلسفي من أجل تحويله إلى خطاب فعال ضمن الخطابات العديدة التي يحتويها المجتمع العباسي ، سواء أكانت هذه الخطابات مركزية (خطاب الكرم) أو هامشية (خطاب البخل).